كيف يمكنك أن تثق بالله عندما ينهار عالمك؟
سفر حبقوق، مونولوج درامي
القس ستيف نيومان

لقد كنت منزعجاً جداً من الله! كان من المفترض أن نكون شعبه وأن نعيش بحسب معاييره، كان من المفترض أن نكون أضواءه في هذا العالم، لكن الله كان يسمح لشعبنا بالتعمق أكثر فأكثر في الشر، لقد صرخت إلى الله مراراً وتكراراً بشأن المشكلة، ولكن بدا أن الله كان صامتاً وبدا أنه لا يفعل أي شيء، هل شعرت بمثل هذا من قبل؟ هل سبق لك أن صرخت إلى الله مراراً وتكراراً بشأن مشكلة مهمة ثم شعرت أنه تجاهلك؟ لم يكن يفعل أي شيء حيال مشكلتك وكنت محبطاً للغاية.
اسمي حبقوق وقد كنت نبياً في يهوذا في السنوات التي سبقت مجيء البابليين وتدميرنا، وهذا ما كتبته عن معاناتي:

حتى متى يا رب أدعو وأنت لا تسمع؟ أصرخ إليك من الظلم وأنت لا تخلص؟ لم تريني إثماً وتبصر جوراً؟ وقدامي اغتصاب وظلم ويحدث خصام وترفع المخاصمة نفسها، لذلك جمدت الشريعة ولا يخرج الحكم بتة، لأن الشرير يحيط بالصديق، فلذلك يخرج الحكم معوجاً (حبقوق 1: 2-4)

كنا ندين الشر والعنف والظلم في أرضنا، ونطلب من الله أن يغير بلادنا ويعيد شعبنا إليه، لكن يبدو أن الله غافل عن توسلاتنا، ألم يسمع لنا؟ ألن يفعل شيئًا حيال هذا الظرف؟

حسناً، لقد أجابني الله، لكنه لم يكن الجواب الذي كنت أتوقعه، لم تكن إجابة أردتها أو أستطيع فهمها،هذا ما قاله:

انظروا بين الأمم
وأبصروا وتحيروا حيرة.
لأني عامل عملا في أيامكم
لا تصدقون به إن أخبر به.
فهأنذا مقيم الكلدانيين
الأمة المرة القاحمة
السالكة في رحاب الأرض
لتملك مساكن ليست لها.
هي هائلة ومخوفة.
من قبل نفسها
يخرج حكمها وجلالها.
وخيلها أسرع من النمور
وأحد من ذئاب المساء.
وفرسانها ينتشرون
وفرسانها يأتون من بعيد
ويطيرون كالنسر
المسرع إلى الأكل.
يأتون كلهم للظلم.
منظر وجوههم إلى قدام
ويجمعون سبيا كالرمل.
وهي تسخر من الملوك

والرؤساء ضحكة لها.
وتضحك على كل حصن
وتكوم التراب وتأخذه.
ثم تتعدى روحها فتعبر وتأثم.
هذه قوتها إلهها (حبقوق 1: 5-11)

ماذا؟ هل يمزح الله معي؟ أعني أن أمتنا كانت فاسدة، لكننا لم نكن سيئين مثل هؤلاء البابليين، ما رأيك لو صليت من أجل النهضة في أمتك، وأخبرك الله أنه سيقيم عدواً شريراً ليغزوك، ويدمر أرضك للتخلص من الشر الموجود بينكم؟ حسناً لقد شعرت بما تتخيل أنك ستفعله، لقد شعرتُ بالرعب، كان هؤلاء البابليون رجالًا متكبرين ومتغطرسين يعبدون قوتهم الخاصة.

لم أصدق إجابته التي تكلم بها، ما قال الله أنه سيفعله لا يتناسب مع شخصيته، فشكوت مرة أخرى إلى الله وحاولت التوفيق بين كل هذا وشخصيته، لم يكن الأمر منطقياً.

ألست أنت منذ الأزل
يا رب إلهي قدوسي؟ لا نموت.
يا رب للحكم جعلتها
ويا صخر للتأديب أسستها.
عيناك أطهر من أن تنظرا الشر
ولا تستطيع النظر إلى الجور (حبقوق 1: 12-13أ)

الله أبدي ليس له حدود مثل البشر أو الأشياء المخلوقة، إنه إله العهد الذي كانت لي علاقة به، ولهذا السبب يمكنني أن أناديه إلهي، على عكس الآلهة الوثنية للأمم المحيطة، فإن إلهنا قدوس وهو لن يخطئ، وهو أيضاً السيد على كل الشعوب، يمكنه أن يعين شعباً لينفذ دينونته على شعب آخر، وهذا ما كان سيفعله. لقد كان صخرتنا وأساسنا الثابت ونقطة ثباتنا، إنه أنقى من أن ينظر إلى الشر أو يتسامح مع الخطأ، لذلك كنت أتأمل في ماهية الله، وأحاول أن أفهم كل هذا.

في بعض الأحيان تكون هذه الطريقة في التعامل مع المشاكل هي كل ما تحتاجه، يمكنك أن تتأمل في صفات شخصية الله وتجد الراحة والتوجيه لحيرتك، لكن هذا لم ينجح معي هذه المرة، ما أخبرني الله أنه كان يفعله لم يكن له أي معنى، فقدمت شكوتي إلى الله:

فلم تنظر إلى الناهبين
وتصمت حين يبلع الشرير
من هو أبر منه؟
وتجعل الناس كسمك البحر
كدبابات لا سلطان لها.
تطلع الكل بشصها
وتصطادهم بشبكتها
وتجمعهم في مصيدتها
فلذلك تفرح وتبتهج.
لذلك تذبح لشبكتها

وتبخر لمصيدتها
لأنه بهما سمن نصيبها
وطعامها مسمن.
أفلأجل هذا تفرغ شبكتها
ولا تعفو عن قتل الأمم دائما؟ (حبقوق 1: 13ب-17)

لم يكن البابليون يهتمون بأسراهم، لقد عاملوهم كما يعامل الصيادون أسماكهم، لقد كنت في حيرة من أمري، كان علي أن أفعل شيئاً آخر للعثور على إجابة فقلت:

على مرصدي أقف
وعلى الحصن أنتصب
وأراقب لأرى ماذا يقول لي
وماذا أجيب عن شكواي (حبقوق 2: 1)

مثل حارس ينظر من فوق أسوار المدينة ليرى أي حركة، أو أي اقتراب من أي شخص قد يكون خطيراً، كنت أستعد في قلبي وأنظر إلى الله، لم يكن لدي إجابة ولكني قررت التمسك بالإيمان والثقة أن الله سيمنحني إجابة في الوقت المناسب، الانتظار ليس سهلاً وكذلك الثقة عندما لا تستطيع رؤية الإجابة هي أمر صعب، أستطيع أن أخمن أن البعض منكم الآن يتصارع مع الله كما كنت أنا، هناك أشياء تحدث في حياتك أو في عائلتك، يبدو أنها لا تتناسب مع ما تعرفه عن محبة الله وأمانته ورحمته، لا يمكنك معرفة الأشياء إذ يبدو أن الله أصم عن صلواتك ويتجاهل مشاكلك، إذا تلقيت تلميحاً بأنه يخطط لشيء ما، فإن ما يبدو أنه يحدث ليس له معنى، كيف يمكن لله أن يفعل مثل هذه الأشياء؟ هكذا شعرت فقررت أن أترقب الجواب كما يسهر الحارس على مراقبة المدينة.

فأجابني الرب وقال:
اكتب الرؤيا
وانقشها على الألواح
لكي يركض قارئها
لأن الرؤيا بعد إلى الميعاد
وفي النهاية تتكلم ولا تكذب.
إن توانت فانتظرها
لأنها ستأتي إتيانا ولا تتأخر.
هوذا منتفخة
غير مستقيمة نفسه فيه.
والبار بإيمانه يحيا.
وحقا إن الخمر غادرة.
الرجل متكبر ولا يهدأ.
الذي قد وسع نفسه كالهاوية،
وهو كالموت فلا يشبع
بل يجمع إلى نفسه كل الأمم
ويضم إلى نفسه جميع الشعوب (حبقوق 2: 2-5)

أخيراً أخبرني الله كيف كان كل شيء متناسباً مع بعضه البعض. نعم كان الله سيستخدم هذا الشعب الشرير أي البابليين كأدوات له، وأتذكر أن أشعياء الذي عاش قبلي بسنوات عديدة، قال إن الله سيستخدم الآشوريين في عصره كأداة لمعاقبة شعب إشعياء، لكن أشعياء قال أن الله سوف يحمل هؤلاء الآشوريين مسؤولية شرهم، حتى عندما ينفذون دينونة الله (انظر إشعياء ١٠) الآن في أيامي كان سيستخدم البابليين لتطهير أمتنا، لكنهم سيخضعون لدينونة الله أيضاً، لن يتركهم الله يفلتون من هذه الأشياء إلى الأبد، لقد طلب منا أن نحيا بالإيمان وأن نثق به، ليفعل ما هو صواب حتى عندما لا نشعر بأنه صواب.

ثم أعطاني الله كلمات دينونة لهؤلاء الناس البابليين الأشرار، باستخدام شكل ترنيمة تهكمية مثل طفل يسخر من زميله الذي سقط خلال اللعب، طلب مني الله أن أتحدث عن البابليين فيما يتعلق بمصيرهم المؤكد، لن يفلتوا من شرورهم إلى الأبد، ويل لهم وويل لجميع الذين يستغلون الآخرين بأنانية بينما يدفعون الله خارج حياتهم، كن حذراً لئلا يصفك هذا

فهلا ينطق هؤلاء كلهم بهجو عليه
ولغز شماتة به ويقولون:
ويل للمكثر ما ليس له
إلى متى؟ وللمثقل نفسه رهوناً؟
ألا يقوم بغتة مقارضوك
ويستيقظ مزعزعوك
فتكون غنيمة لهم؟
لأنك سلبت أمماً كثيرة
فبقية الشعوب كلها تسلبك
لدماء الناس وظلم الأرض والمدينة
وجميع الساكنين فيها.
ويل للمكسب بيته كسباً شريراً
ليجعل عشه في العلو
لينجو من كف الشر
تآمرت الخزي لبيتك.
إبادة شعوب كثيرة
وأنت مخطئ لنفسك.
لأن الحجر يصرخ من الحائط
فيجيبه الجائز من الخشب.
ويل للباني مدينة بالدماء
وللمؤسس قرية بالإثم
أليس من قبل رب الجنود
أن الشعوب يتعبون للنار
والأمم للباطل يعيون؟
لأن الأرض تمتلئ
من معرفة مجد الرب
كما تغطي المياه البحر.
ويل لمن يسقي صاحبه
سافحا حموك ومسكراً أيضاً

للنظر إلى عوراتهم.
قد شبعت خزياً عوضاً عن المجد.
فاشرب أنت أيضاً واكشف غرلتك
تدور إليك كأس يمين الرب
وقياء الخزي على مجدك.
لأن ظلم لبنان يغطيك
واغتصاب البهائم الذي روعها
لأجل دماء الناس
وظلم الأرض والمدينة
وجميع الساكنين فيها.
ماذا نفع التمثال المنحوت
حتى نحته صانعه؟
أو المسبوك ومعلم الكذب
حتى إن الصانع صنعة يتكل عليها
فيصنع أوثانا بكما؟
ويل للقائل للعود: استيقظ
وللحجر الأصم: انتبه
أهو يعلم؟
ها هو مطلي بالذهب والفضة
ولا روح البتة في داخله
أما الرب ففي هيكل قدسه.
فاسكتي قدامه يا كل الأرض (حبقوق 2: 6-20)

لقد كانت الدينونة القادمة على البابليين بمثابة تعزية لي، ولم يكن الله ليسمح لهم بالفوز إلى الأبد، لكن ذلك لم يزل الرعب الذي شعرت به تجاه ما كان قادماً على أمتي، لقد تأملت في عمل الله في الماضي لصالح شعبه إسرائيل، ووضعت تلك التأملات في قصيدة فيما تسميه الإصحاح الثالث من نبوتي، ولكن عندما تأملت فيما كان قادماً شعرت بالمرض، كان هذا سيكون فظيعاً، لا يعدنا الله بإخراجنا من المعاناة الخطرة.

صلاة لحبقوق النبي على الشجوية:
يا رب، قد سمعت خبرك
فجزعت يا رب
عملك في وسط السنين أحيه.
في وسط السنين عرف.
في الغضب اذكر الرحمة.
الله جاء من تيمان
والقدوس من جبل فاران (كانت هذه مناطق تقع جنوب أرض الموعد، والتي جاء الإسرائيليون من خلالها)
سلاه

جلاله غطى السماوات
والأرض امتلأت من تسبيحه.

وكان لمعان كالنور.
له من يده شعاع
وهناك استتار قدرته.
قدامه ذهب الوبأ
وعند رجليه خرجت الحمى (كانت هذه هي الضربات التي أنزلها الله على المصريين)
وقف وقاس الأرض.
نظر فرجف الأمم
ودكت الجبال الدهرية
وخسفت آكام القدم.
مسالك الأزل له.
رأيت خيام كوشان تحت بلية.
رجفت شقق أرض مديان (كانت هذه هي القبائل التي تعيش بالقرب من أدوم وكانت خائفة مما كان يفعله الله عندما كان يقود شعبه عبر الصحراء إلى أرض الموعد)
هل على الأنهار حمي يا رب؟
هل على الأنهار غضبك؟ (شق الله البحر الأحمر وأوقف نهر الأردن حتى يستطيع شعبه دخول أرض الموعد)
أو على البحر سخطك
حتى إنك ركبت خيلك
مركباتك مركبات الخلاص؟
عريت قوسك تعرية.
سباعيات سهام كلمتك (تشير إلى البروق)
سلاه..

شققت الأرض أنهاراً.
أبصرتك ففزعت الجبال.
سيل المياه طما.
أعطت اللجة صوتها.
رفعت يديها إلى العلاء.
الشمس والقمر وقفا في بروجهما (تصوير يشوع 10)
لنور سهامك الطائرة
للمعان برق مجدك.
بغضب خطرت في الأرض
بسخط دست الأمم.
خرجت لخلاص شعبك
لخلاص مسيحك.
سحقت رأس بيت الشرير
معريا الأساس حتى العنق.
سلاه.

ثقبت بسهامه رأس قبائله.
عصفوا لتشتيتي.

ابتهاجهم كما لأكل
المسكين في الخفية.
سلكت البحر بخيلك
كوم المياه الكثيرة (إشارة إلى دمار جيش فرعون في البحر الأحمر)
(حبقوق 3: 1-15)

بينما كنت أفكر في الدمار القادم لأرضي وشعبي ارتعدت، هذا التوقع الرهيب جعلني أشعر بالمرض واهتز جسدي.
سمعت فارتعدت أحشائي.
من الصوت رجفت شفتاي.
دخل النخر في عظامي
وارتعدت في مكاني
لأستريح في يوم الضيق
عند صعود الشعب الذي يزحمنا (حبقوق 3: 16)

هناك أشياء كثيرة لا يمكننا تغييرها في الحياة، كنت سأغير النغمة الروحية في أمتنا وأحدث نهضة وطنية لو أمكنني ذلك، كنت سأغير خطة الله لأمتنا لو استطعت، لكنني لم أستطع تغيير مثل هذه الأشياء، كان علي أن أنتظر بصبر مجيء الكارثة، لكن هذا ليس كل ما يمكنني فعله، يمكنني أيضاً تجديد نفسي في محبة الله وصلاحه، كما أن العثور على الفرح في الرب هو خيار شخصي، كان توجيه قلبي نحوه وترك صلاحه يتغلغل فيَّ، أمراً لم أستطع أن أهتم به بسبب الظروف الصعبة القادمة. وأنتم تعلمون إنه شيء يمكنك القيام به أيضاً، يعيش البعض منكم ظروفاً تبدو ساحقة تماماً بالنسبة لكم، لم تسر الأمور كما كنت تأمل، كما تحطمت جميع خططك الجيدة إلى الأرض، ربما تنتظر الكارثة القادمة في طريقك ولا تستطيع تغييرها، لم أستطع تغيير ظروفي المرعبة، لكن كان بإمكاني تغيير ما كنت أسمح لذهني وقلبي بالتركيز عليه، وهذا ما كتبته عما كنت أمر به:

فمع أنه لا يزهر التين
ولا يكون حمل في الكروم.
يكذب عمل الزيتونة
والحقول لا تصنع طعاماً.
ينقطع الغنم من الحظيرة
ولا بقر في المذاود
فإني أبتهج بالرب
وأفرح بإله خلاصي (حبقوق 3: 17-18)

بينما كنت أفكر في الإبتهاج بالرب وإيجاده قوتي، فكرت في كلمات داود في المزمور 18:

الله طريقه كامل.
قول الرب نقي.
ترس هو
لجميع المحتمين به.
لأنه من هو إله غير الرب؟
ومن هو صخرة سوى إلهنا؟
الإله الذي يمنطقني بالقوة

ويصير طريقي كاملاً
الذي يجعل رجلي كالإيل
وعلى مرتفعاتي يقيمني (30-33)

ألهمتني هذه الكلمات أن ألجأ إلى الرب وأجد قوتي فيه، عرف الملك داود المشاكل وقد ظل هارباً للنجاة بحياته لعدة أشهر، بينما كان الملك شاول يطارده ليقتله. كان عليه أن يتكل على الله، لقد شجعتني فكرة صعود الإيل إلى المرتفعات على تجاوز ظروفي البائسة بقوة الرب، لذلك ختمت نبوتي بهذه الكلمات:

الرب السيد قوتي
ويجعل قدمي كالأيائل
ويمشيني على مرتفعاتي (حبقوق 3: 19)

هل سبق لك أن راقبت غزالاً في التلال الصخرية؟ أنا وأنت نجد صعوبة في عبور الطريق، ولكن يبدو أن الغزال يقفز فوق الصخور وأطراف الأشجار، غير مهتم بالحواجز التي يواجهها. كنت أجد أنه بينما كنت أقوي نفسي في الرب، كنت أيضاً أرتفع فوق الظروف وأجد الفرح والسلام الذي لا يستطيع أولئك الذين لا يعرفون الله أن يجدوها، لم أكن أقفز حرفياً فوق كل التوتر والقلق لأن هذا كلام شعري، كان الإرتفاع كان حقيقياً جداً ويمكنك الحصول عليه أيضاً، هل تعلم أن هذه التجربة متاحة لك؟ لا أقصد أن العثور على الفرح في الرب يزيل كل الدموع، لا تزال الحياة صعبة للغاية، كان مستقبلنا سيكون مروعاً.

لذلك بينما تواجه أوقاتك الصعبة فكر في الأشياء التي فعلتُها، أولاً تأملت في ماهية الله، لقد أخبرنا الكثير عن نفسه، يمكننا أحياناً أن نستنتج من هذه الإعتبارات ونفهم ما يفعله، لكن في بعض الأحيان تظل الأمور غير منطقية، لم أتمكن من التفكير في طريقي إلى السلام بشأن ما أخبرني به الله أنه سيحدث، لذلك اتخذت موقفي وانتظرت الله، في بعض الأحيان علينا فقط أن ننتظر ونثق، لقد أعلمني الله أن البابليين سوف يخضعون لعدالة الله، إنهم لن يفلتوا من أفعالهم الشريرة إلى الأبد، لكن لا يزال يتعين علي أن أتصارع مع حقيقة ما سيأتي علينا، كان ذلك سيكون مروعاً. كنت أعرف كيف كان حال البابليين وماذا سيفعلون بنا، بالكاد أستطيع استيعابه ولكن بعد ذلك حولت روحي إلى الله، قررت أن أحصل على فرحتي فيه، لقد تركت قلبي يفرح بكل ما هو عليه: رحمته وبره، وأمانته، وبينما فعلت ذلك وجدت روحي ترتفع فوق المآسي وخيبات الأمل التي أحاطت بي، آمل أن تتمكن من العودة مراراً وتكراراً إلى كتاب النبوة الصغير الخاص بي، وأن تأخذ العديد من هذه الكلمات على أنها كلماتك الخاصة، وأن تجد الراحة والمساعدة بينما تواجه ظروف الحياة التي قد تكون مخيبة للآمال أو حتى مدمرة.

فمع أنه لا يزهر التين
ولا يكون حمل في الكروم.
يكذب عمل الزيتونة
والحقول لا تصنع طعاماً.
ينقطع الغنم من الحظيرة
ولا بقر في المذاود،
فإني أبتهج بالرب
وأفرح بإله خلاصي.
الرب السيد قوتي
ويجعل قدمي كالأيائل
ويمشيني على مرتفعاتي (حبقوق 3: 17-19)